الدمن والركام وتوجيه الالتفات الى الامور التي لا يزال كثيرون يضحكون على الملتفتين اليها عرف الناس تاريخ الكرة الارضية وما جرى عليها من الحوادث وما عاش فيها من الخلائق وما طرأ على الانسان قبل ان ذكر عنه شيء في التاريخ فتألف من ذلك علوم معرفتها تدهش العقول . او خفي عنك ان فطاحل العلم في هذا الزمان والذين ذاع صيتهم الى اقاصي البلدان هم الذين يبحثون عن حل هذه المسائل لماذا ينبت قرن للثور ولا ينبت للحمار ولماذا يكون للفرس حافر وللخروف ظلف ولماذا طال عنق الظرافة وخرطوم الفيل واتسعت عين المها وضمرت عين الخلد ولماذا يطير العصفور ولا تطير البطة ولماذا اتسعت اذن العنزة وتدلت وصغرت اذن الفرس وانتصبت ولماذا ينبت للرجل شارب ولحية ولا ينبت للمرأة ولماذا تزوّق الديك بالالوان ويقيت الدجاجة عطلاً منها . ولماذا تلوّنت الزهرة ولمست قشرة الخوخة وصلبت نواة المشمشة وزها لون البرتقالة واشاك قشر الصبيرة الى غير ذلك مما يظهر للجاهل طفلياً مضحكاً . واما العاقل فيعلم ان الصغائر تتضمن من الاسرار كالكبائر وان العقد الكبيرة لا تحلّ الاّ بعد حل الصغيرة وان العلم انما يتكامل بمعرفة حقائق الامور دانيها وقاصيها كبيرها وصغيرها . فالعاقل يعتبر كل علم والخبير يعلم ان الحكمة في حل الصغائر كالحكمة في حل الكبائر

في اخلاق الدمشقيين

لجناب الدكتور بشاره زلزل (تابع ما قبله)

هل في دمشق الفيحاء شاهدة على انحطاط الامة العربية وكان يجب ان تكون في صدر المدن الكبيرة المتمدنة الآهلة بكثرة السكان الحافلة بجميع وسائل العمران البالغة من انتظام الهيئة الاجتماعية الى ذروة السعادة بالنظر الى مركزها الجغرافي الذي قلما يرى له مثيل حال كونها موضوعة في وسط جميل بين سهول مخصبة ذهبية التربة واسعة المساحة يحدها شمالاً جبل قاسيون الذي يزيدها جمالاً ويجري فيها من الغرب الى الشرق نهر بردى المشهور بطيب مائه وعذوبته سائراً في وسطها ومتشعباً الى جداول كثيرة تنساب في تلك الحدائق النضرة الى مدى بعيد فلا تزال لابسة اثوابها السندسية في جميع الفصول . وتربتها المجروفة بسيول الدور الرابع الجيولوجي العرمة لا تزال مخصبة على تمادي الزمان مع عدم اتقان الحراثة بموجب القواعد التي يحفظ بها الخصب ويزاد . لذلك كانت غوطتها الناضرة عديمة المثال . ومن يقف هنالك على رابية في الصالحية ليشاهد تلك الحدائق الانيقة الناضرة والرياض البديعة الزاهرة يتبهر

نظره من محاسنها و يدهش من جمالها الطبيعي فيتخيل انه في جنة تجري من تحتها الانهار و يقضي بصحة قول من قال

الشام جنة ارضٍ فردوسها الصالحيه

وهذا ما يجعل مشاهد تلك المناظر اللبيب على الحكم بسموّ خصائص الدمشقيين وعلو مرتبتهم في السلم البشري بناء على ما عرف من تأثير الوسط في تنويع طبائع الانسان و بنائه. ولذلك كان الدمشقيون ذوي كياسة ولطافة يميلون كثيرًا الى اللهو والزهو و يرتاحون الى ارتشاف كؤوس الانشراح على ضواحي الجداول في تلك الحدائق زرافات زرافات غير مهتمين بهموم المصالح ولئن اجادوا الفكرة بادارتها بحسب مقتضى الصوالح. ولا يخفى انهم حسان الخلقة تشهد مناظرهم على الدماثة والحذاقة والظرافة واللطافة. وتدل استدارة القحف فيهم على توقد الافكار وسعة القوى العقلية الاّ ان بنيتهم مترهلة فهم يخافون لقلة الرياضة وتمرين العضل. وقدودهم ربعة او قصيرة ومزاجهم دموي بلغمي. وعليهم سيماء النجابة ظاهرة في وجوههم ولكنهم قلما يخشنون ولو اقترن من التعب باعمال الفكرة في طلاب العلم. والذ احاديثهم واكثرها تداولاً بينهم ما اختص بالجسديات فاذا دعتهم المصالح للمسامرة الادبية كان ذلك فضلة يحبها الطبع و يستثقلها السمع

ولا يُنكر ان كثيرين من السادة الفضلاء الذين يحق لدمشق ان تفتخر بهم وتعتزهم جديرون باعتبار العالم المتمدن بالنظر الى سعة معارفهم. الى ان ما يحمل الى الاستكون العامة قاصرين من حيثية الآداب مشتغلين عنها بالشهوات الجسدية التي هي علة فساد الفكر وظلام العقل. ولامر واضح ان العامة لو نهجوا سبيلاً معتدلاً من جهة الاميال الجسدية واشغلوا قواهم العقلية بالدرس والمطالعة لحصلوا قدرًا زائدًا من العلوم والمعارف اذ انهم من حيثية الاستعداد الطبيعي في درجة سامية. ولكنهم اضاعوا هذه الموهبة بتوغلهم في الملاهي وانغمارهم في الشهوات. وانّى يحصلون على زمان كافٍ لتحصيل العلم واكثر وقتهم ذاهب وراء املود يهتصرونه وريحانة يستشمونها وقهوة يرتشفونها [1] على انهم يتربون في كنف نعيم الاسراف غير قانطين من رحمة الله وكثيرًا ما يتممون سنة الزواج قبل البلوغ فيفوت الوقت الذي يجب ان تتمرّن فيه القوى العقلية في اقتناء المعارف. وكثرة الزوجات كثيرًا ما تجعل النساء عقيمات فلا سبيل لتكثير النسل بذلك كما ظهر لذوي المعارف على انهنّ ما دمنَ ضرّات بعضهنّ لبعض وممنوعات من تغذية العقل بالعلم فلا يقدرنَ على تربية اولادهنّ تربية صالحة. وذلك ما يجعلهنّ

(١) (المتقطف) كانود ان نحذف هذه النقرة ونحوها من الطبعة الثانية لولا ان حذفها يجر الى حذف فصول كثيرة بنيت عليها

مستعبدات للشهوات ذليلات كانهنّ لم يخلقنّ لمساعدة الرجال على احتمال مشقات المعيشة بل لكي يلقينّ على كواهلهم ثقلاً جسيماً فوق اتعابهم واذا عدمت الشفقة الوالدية لعدم تعلق الزوجين ببعضهما فالدوه حظ الاولاد فهذه حالة تنتج وينتج عنها انحطاط الهيئة الاجتماعية الى دركات الذل والهوان ولا بدع ان كانت الذريعة لضعف النسل وقلة عدده لان الاسراف بالشهوات باعث للعقم ومحدث امراضاً نفسية وجسدية يستغرق وصفها مجلدات ضخمة

ولا تصعب معرفة عوائد الدمشقيين اذا اعتبر الزي العربي انه المألوف عندهم غالباً ولكنه قد تنوّع بعوائد مأخوذة عن الاتراك والاكراد والافرنج ولا سيما لبس الطربوش العزيزي يكاد يكون عمومياً بدلاً من العمائم والاقبية والجبب وان لم تزل كثيرة الاّ انها آخذة بالنقصان يوماً فيوماً وقد غلب اللاستيك والكالوش على سائر الاحذية والبعض يستعملون آنية فضية او ذهبية في الضيافات والموائد ولكن الذوق العام يكره هذا الاستعمال لان الشريعة لا تبيحه كما انها لا تبيح ظهور النساء على غير الاقارب الادنين الاّ محجبات اذا دعتهنّ الضرورة

ومن صفات الدمشقيين انهم كلفون بمدينتهم الجميلة كالباريزيين ولا غرو بذلك فهم لا يهجرون الربوع ولا يتركون الاوطان والخلاّن الاّ لحوادث مهمة ومع ذلك لا تنشرح صدورهم الاّ حيث تكاثر المتنزهات وتسيل جداول المياه وابنا وُجدوا ربحوا الثناء على كياستهم ولطفهم . على انهم ليسوا باقل لطفاً في مدينتهم عينها ما اذا كانوا خارجاً عنها وحسبك برهاناً على ذلك القول الشائع عندنا وهو "لم يدخل الشام (دمشق) غريب الاّ طلب من الله عمرانها" . ولما كانوا محصورين فيها عن النظر الى مدًى بعيد لا يشرفون على الاودية والجبال ولا يطلون على البحر اعتنوا ببناء الدور وزينوها بالنقوش البديعة من داخلها واما خارجها فلا يثريه الناظر لانها عديمة النظام الهندسي وقد زادوها تحسيناً بجرهم الماء اليها من طوالع نهر بردى العذب وبغرسهم في عرصاتها النباتات المتنوعة الازهار

ولا ينكران الدمشقيين بالنظر الى حذقهم وتوقد افكارهم واستعدادهم الطبيعي للتقدم لا يعوزهم من وسائل العمران و وسائط انتظام الهيئة الاجتماعية الاّ الاتحاد والتعاون لاعلاء شأن الوطن وتعميم فوائد العلم ولكن أنّى يكون الاتحاد ولا تكافؤ بين ابناء الوطن يضمهم كاخوة غيورين على الصوالح العامة وكيف ينتشر العلم وليس لنا مثقال ذرّة من الحرية التي لا حيوة للعلم الاّ بها فاذا شاء احد علمائنا اذاعة حقيقة علمية لينتفع بها الجمهور اوقفه عنها خوفه من الوقيعة كما جرى مثل ذلك في الاعصر المتوسطة المعروفة بايام الجهل والخشونة حيث كانت السيادة المطلقة لا تراعي حرمة الحقوق الانسانية . ترى ما هو المانع عن تقدم الدمشقيين في سبيل التمدن والعمران

وبلادهم احسن البلدان رقعة واكرمها بقعة وهم من احسن الناس خَلقًا واجلهم خُلقًا وكان سلفاؤهم ارباب العلوم وابناء مجدتها وقد شادوا لها القصور التي لم تزل اطلالها عبرةً لمن اعتبر . هنالك ترى صكوك الاوقاف الكثيرة مرسومة على الاحجار بالاحرف الكبيرة محبوسًا ريعها على الطلبة فليت شعري اين ذهبت تلك الاوقاف وكيف عبثت بتلك المدارس صروف الزمان ومن المحال ان مدينة كدمشق تشتمل مع القرى المجاورة لها على ما يقيف على خمس مئة الف نسمة اكثرهم من السبط العربي لا يوجد فيها الآن عشرة آلاف نفس يحسنون القراءة والكتابة مع اننا في عصر يعرف بعصر النور وانهُ لا يوجد فيها اكثر من مئة مشترك بالجرائد الوطنية ورواج الجرائد دليل على نفاق بضاعة الادب . أليس من المعيب ان هذه المدينة الكبيرة لا يوجد فيها مدرسة جامعة ولا مطبعة متقنة ولا مرسح ولا بيمارستان ولا معرض للخف والآثار القديمة والكائنات الطبيعية ولا مكتبة عمومية ولا صيدلية اصولية ولا منتدى للمذاكرة الادبية ولا شركة تجارية او صناعية ولا معامل الادوات ولا مصانع ولا جمعية زراعية حتى ان الكثيرين من اهلها لا يعتقدون بالطبيب الاَّ متى كان مشعبذًا . ومن يصدّق ان نهر بردى الطيب الماء الجاري الى وسط المدينة بلغى مستودعًا للاوخام والاقذار وان طرقها حرجة وسخة مع ان دخل بلديتها اثنا عشر الف ليرة على الاقل

ومن يعرف قيمة تلك السهول الخصبة ولا يأخذهُ الاسف لتركها عرضةً لمطامع البعض من الجهة الواحدة ولتخريب البدو من الجهة الاخرى وكانت في زمن الرومانيين تقوم باود اكثر من اربعين مليونًا كما افاد المؤرخون فهي الآن لا تفي باحتياج المليونين من اهلها . ولو حرثت كما ينبغي وزُرعت بحسب الاصول لاغنت البلاد واثرت العباد وناهيك عما يترتب على الزام البدو جانب الحضارة من المنافع الطائمة والفوائد العامة . وهنا يليق الشكر على مساعي حضرة صاحب الايهة والدولة مدحت باشا والي ولاية سورية المعظم لانني سمعت بحضرتهِ المنيفة انهُ عازم على مدراكة هذا الامر الخطير باعطاء الادوية الفعالة لتدب حيوة التمدن بذلك العضو المتقنقر من اعضاء هيئتنا الاجتماعية واعني بهِ البدو الذين يشبهون هنود اميركا في ايام جاهليتهم وابان ترحلهم كما انهُ قد استوجب الشكر لتحريضهِ القوم على انشاء الجمعيات الخيرية لاقامة المدارس فكثر بعنايتهِ عدد طلبة العلم . وقد انشأ للصنائع مدرسة في المدينة نفسها لم تزل الهمة مصروفةً ببنائها . وامر ببناء سوق جنمق الذي احترق حديثًا على نسق جميل يضارع الاسواق الاوربية سيمتد على هذا المنوال الى باب شرقي بحيث يعود الى تلك المدينة بهجة ابهتهِ طريقها المستقيم متصلاً بشعب اخرى تتمُّ بها سهولة الاتصال بين انحاء المدينة . على ان هذا